المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث
العدد الثاني – المجلد الخامس
يونيو 2019 م
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

Iraq and the future of Arabs

Manal Salem Al-Sheikh

King Abdulaziz University || KSA

Abstract: This study aimed to reveal the reality of what was happening in Iraq at the period of the Second Gulf War 1990-1991, of instability and the gray scene of the Arab landscape. And the impact of datums and events at the Iraqi territory on the Iraqi minorities and the other Arab countries, and how the future of these countries will be after the American penetration in Iraq, all the relevant literature has been surveyed to success the goal of the study. The researcher presented a neutral proposal to the current considerations and developments in the Arab region and he suggested a vision to override the Iraqi crisis with minimal losses.

Keywords: Iraq - Future of Arabs - Instability - Modernity.

العراق ومستقبل العرب

منال سالم الشيخ

جامعة الملك عبد العزيز || المملكة العربية السعودية

الملخص: هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن واقع ما يجري في العراق في الفترة ما بعد حرب الخليج الثانية 1990-1991م، من عدم استقرار، وضبابية في المشهد العربي، وتأثير المعطيات والأحداث المطروحة على الأرض العراقية، على الأقليات العراقية، وعلى الدول العربية الأخرى، وكيف سيكون مستقبل تلك الدول بعد التغلغل الأمريكي في العراق، وقد تم مسح جميع الأدبيات المتعلقة بالموضوع لإنجاح هدف الدراسة، كما قدم الباحث طرحاً محايداً للحيثيات التي تجري في المنطقة العربية، وقدم رؤيةً للخروج من الأزمة العراقية بأقل الخسائر.

الكلمات المفتاحية: العراق- مستقبل العرب- عدم استقرار- حداثة.

المقدمة:

لطالما كانت العراق محط الأعين، منذ عصور ما قبل التاريخ، أما في العصر الحديث فكانت العراق ذات أهمية استراتيجية واقتصادية لبريطانيا نظراً لموقعها على طرق التجارة البرية إلى الأناضول والبحر المتوسط وبلاد فارس، وبعد سقوط الدولة العثمانية تأسست دولة العراق من دمج المقاطعات العثمانية الثلاث وهي الموصل وبغداد والبصرة، ونظراً لاحتياطيات النفط الكبيرة الموجودة في الموصل، عملت بريطانيا ضد رغبة فرنسا على دمج هذه المقاطعة في دولة العراق الجديدة وليس في الانتداب الفرنسي على سوريا، استولت بريطانيا على بغداد في 1917م، وأتبع ذلك فترة من الاحتلال العسكري البريطاني وكان من المخطط أن تصبح العراق تحت الانتداب البريطاني حسب مؤتمر سان ريمو في أبريل 1920م، ولكن نشبت ثورة في البلاد ضد الانتداب المقترح في مايو 1920م مما دفع إلى إسقاط المخطط. قمع البريطانيون الثورة عن طريق غارات القصف الجوي العشوائية وأسسوا في العام التالي مَلَكية لهذه البلاد.

وظل العراق تحت الانتداب حتى العام 1932م،حين نال استقلاله الرسمي عن بريطانيا سنة ولكن ظل في البلاد نفوذ بريطاني قوي حتى 1958م عندما أُطيح بالملكية الموالية لبريطانيا وتأسست جمهورية العراق.

وكانت محنتها الأساسية عندما زجت بنفسها في حربين مدمرتين، اولها الحرب العراقية الايرانية 1980م التي لاقت دعما من طرف الولايات المتحدة الامريكية لكن سرعان ما تغيرت هذه السياسة في حربها الثانية عندما قامت بغزو الكويت 1990م، حيث أعطت للولايات المتحدة الامريكية الذريعة المباشرة للتدخل العسكري في العراق بتفويض من الأمم المتحدة من أجل اخراج القوات العراقية من الكويت وحماية المصالح الأمريكية في الخليج والمتمثلة في حماية أمن اسرائيل والتحالف معها، وطبعاً بالسيطرة على احتياطات النفط الضخمة في المنطقة (رحيمة، 2014).

التغيير في العراق بعد 2003م جاء بمفاهيم جديدة لتكريس الديموقراطية وبناء دولة المواطنة والمؤسسات الدستورية، إلا أنا وجدنا أن النظام السياسي الجديد في العراق قد تم بناؤه على أساس حكومة الشراكة، أي مشاركة الجميع في صناعة القرار بعيداً عن نتائج الانتخابات، ما يسمى بالديموقراطية التوافقية، والتهي ديموقراطية جديدة ابتدعتها القوى السياسية لضمان مصالحها ووجودها في السلطة (الخزرجي، 2013).

إن مشروع بناء الدولة العراقية يذهب باتجاه دولة المكونات، فمن المعروف أن الشعب العراقي يتكون من تعددية قومية ودينية ومذهبية وما قامت به قوات الاحتلال عند دخولها بإعادة تشكيل الدولة ، بعد أن قامت بحل مؤسسات الدولة المؤسساتية والامنية والعسكرية العراقية وعمليات الاستقطاب الطائفي في عملية بناء الدولة العراقية التي تمثل اللبنة الثانية بعد الدستور وتشكيل معظم القوى والاحزاب السياسية العراقية التي تأسست على اساس ولائها للمكون و عانت هذه القوى من غياب رؤية واضحة لمفهوم الدولة وعملية بنائها لكونها حديثة الممارسة للسلطة.

كل هذه الاضطرابات والصراعات الداخلية في العراق، ستشكل بطبيعة الحال آثاراً على المنطقة العربية أجمع، وذلك لأهمية الشأن العراقي في المنطقة، وانخراطه في صراعات حدودية مع الكويت، وحربه مع إيران، كل ذلك أدى إلى أن تصبح العراق رمزاً للصخب والتخبط العربي، بالتالي سيؤثر هذا الرمز على جميع الدول العربية الأخرى إما بشكل مباشر أو بأثر رجعي.

مشكلة وأسئلة الدراسة:

تتمثل مشكلة الدراسة في الكشف عن الغموض واللبس حول واقع مجريات الأحداث في العراق بعد 2003م وبشكل وصفي محايد، وما ترتب على تلك الأحداث بالنسبة للأقليات العراقية ومستقبل الدول العربية الأخرى.

ويمكن تحديد مشكلة الدراسة في الأسئلة الآتية:

1- ما واقع الأحداث في العراق بعد عام 2003م بالنسبة للأقليات العراقية، ومستقبل الدول العربية الأخرى؟، وينبثق منه الأسئلة الفرعية الآتية:
2- ما الحيثيات التي سبقت العام 2003م قبل قدوم الحملة الأمريكية؟.
3- ما الدوافع الحقيقية وراء الغزو الأمريكي للعراق؟.
4- ما تأثير الحملة الأمريكية على كل من الأقليات العراقية، والدول العربية الأخرى؟.

أهداف الدراسة:

سعت الدراسة لتحقيق الأهداف الآتية:

1. الكشف عن واقع الأحداث في العراق خلال وبعد حرب الخليج الثانية 2003م.
2. الكشف عن الحيثيات التي سبقت العام 2003م قبل قدوم الحملة الأمريكية.

3. التعرف على الدوافع الحقيقية وراء الغزو الأمريكي للعراق.
4. التعرف على تأثير الحملة الأمريكية على كل من الأقليات العراقية، والدول العربية الأخرى.

أهمية الدراسة:

1. قد تفيد هذه الدراسة في الفهم العميق لأحداث الفترة ما بين 1990م- 2003م في العراق.
2. تتتبع هذه الدراسة تأثر الدول العربية المجاورة بأحداث العراق خلال وبعد عام 2003م.
3. قد تفيد في التعرف على حقيقة الإرهاب وبدايته وبأي شكل يتخفى.
4. قد تفيد في المساعدة على فهم الواقع المعاصر لبعض الأقاليم، مثل كردستان.
5. قد توضح هذه الدراسة بعض المفاهيم المغلوطة حول ما جرى بالضبط في فترة ما بعد 2003م في العراق.

حدود الدراسة:

1. الحدود الموضوعية: تتمثل في الكشف عن واقع الأحداث في العراق خلال وبعد عام 2003م.
2. الحدود المكانية: العراق.
3. الحدود الزمانية: 2002-2003م.

مصطلحات الدراسة:

- **الحملة الأمريكية:** الغزو الأمريكي للعراق أو حرب الخليج الثالثة (حرب العراق أو احتلال العراق أو حرب تحرير العراق أو عملية حرية العراق) هذه بعض من أسماء كثيرة استعملت لوصف العمليات العسكرية التي وقعت في العراق سنة 2003م، التي استمرت من 19 آذار/مارس إلى 1 آيار/مايو 2003، والتي أدت إلى احتلال العراق عسكريا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية.
- **الاستقرار السياسي:** هو نتيجة أو محصلة أداء النظام السياسي عندما يعمل بكفاءة و فعالية في مجالات التنمية السياسية والاقتصادية و الشرعية السياسية و الفعالية، معنى ذلك أن عملية الاستقرار في النظام تعتمد على فاعلية النظام السياسي و على التطور الاقتصادي (حيدر، 2005).
- **الحداثة:** هي الوعي بالحداثة وتنادي بالأفكار التي تسعى إلى تغيير الذات الإنسانية، والعالم بأسره (شرابي، 1990).

الإطار النظري للدراسة:

أولاً: الطريق إلى الحداثة.

ينبغي ألا يكون هنالك أي أوهام حول شكل المشهد العربي، الذي أعدته الولايات المتحدة الأمريكية، لتكشف إذا ما، أو متى تدشن حرباً على النظام العراقي، حيث لن يكون هناك عاطفة أو منطق لتفرض سيطرتها على العالم العربي، ولا دبلوماسية عامة بإمكانها إقناع الأغلبية العربية الساحقة أن هذه مجرد حرب.

لقد كان العراق نقطة الانطلاق للمشروع الأمريكي في المنطقة، وقد جاء في الصفحة الرابعة من هذا التقرير ما يلي: "حاول وزير الدفاع الامريكي السابق دونالد رامسفيلد أن يجرب طرح المشروع الامبراطوري ظاهرا وصريحا لعله يغري المنطقة بهذا التحول" فهذا يؤكد أن العراق هو الهدف ، فكانت الفكرة الامريكية الاطاحة بنظام صدام حسين والاتيان بنظام جديد يدين بولائه للولايات المتحدة الامريكية من اجل بسط نفوذها في المنطقة وذلك لضمان

أمن وسلامة اسرائيل وحماية وصول أمريكا الى نفط الشرق الاوسط ، واعتبر غزو العراق هو الخطوة الاولى بالنسبة للمحافظين بإعادة تشكيل الشرق الاوسط بأكمله (هيكل، 2003).

إن الحملة الأمريكية في أعقاب إحباط عمليات تفتيش الأمم المتحدة، سوف ترى بواسطة تلك الأغلبية العربية على أنها امتداد إمبريالي لعالمها، تصب في صالح إسرائيل، أو وسيلة تستخدمها الولايات المتحدة لتحكم السيطرة على نفط العراق، ولن يكون هنالك أي ردات فعل أبان سيطرة هذه القوة الأجنبية العظيمة.

يتوجب على أمريكا أن تقدر على العيش مع هذا الارتياب وعليها درء قدر كبير من العداء للأمريكيين، والغضب الصاخب لشعب عربي محبط، أما الحالة الخَلقية للثقافة فحتى الآن تتحمل المسؤولية الكاملة عن مصابها الذاتي.

ليس هناك حاجة إلى الإفراط في الإذعان للقرارات والمعطيات السياسية في المنطقة، في الواقع أن المنطقة العراقية خاصة العربية عامة، واحدة من تلك الأماكن التي تكون فيها الإرشادات البسيطة للسلطة الأجنبية التي تم إصلاحها أفضل من العادات والمحظورات القديمة في المنطقة، فبالإضافة إلى إسقاط صدام حسين ونظامه وتدمير أسلحته القاتلة، يجب أن يكون المحرك الدافع وراء مسعى أمريكا الجديد في العراق وفي الأراضي العربية المجاورة هو تحديث العالم العربي. كما أن الانغماس الكبير الذي ارتبط بعادات العرب وما يتصل بها من رهاب، قد حصد حصاداً مروّعاً - للعرب أنفسهم ولأمريكا المنغمسة في عراقهم.

إن المعركة بين الحكام العرب والثوار المتمردين هو من الآن فصاعداً شأنٌ أمريكي، هذه حقيقة قاسية، وجائرة، لكنها حقيقية!

في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، بدأ التعديل السياسي والاقتصادي للعالم العربي يشق الطريق، لقد طغت الاتجاهات الديموغرافية الصاخبة على ما تم بناؤه في حقبة ما بعد الاستقلال، ثم انفجر الإسلاموية الغاضبة مثل الرياح القاتلة. فقد تجاهلت العزاء، وأغوت الشباب، ووفرت لغة الرفض والاستئناف ووسائلها، لفترة وجيزة، ثم كان الفشل الذي اتصل حتى بالبنى التحتية للعالم العرب، وكانت الهجرة والإرهاب كانت ملاذ كل ذلك الفشل.

إن النيران التي بدأت في العالم العربي امتدت لكل سواحله، وكانت الولايات المتحدة نفسها هدف رئيسي لشعب بائس لم يعد يصدق أنه يمكن تأمين العدالة في أرضه الخاصة، من قبل الحكام المحليين.

وربما هي أحداث الحادي عشر من أيلول ومفاجأتها المفجعة، هي التي قلبت الموازين في العراق، وأبعدت المخطط الأمريكي لاحتواء العراق وتغيير نظامه، دون استيطان، وكنتيجة يجب شحن الحماسة للإصلاح بالامتعة والعتاد، ولا ينبغي تقديم اعتذارات كبيرة من أجل "الأحادية" الأمريكية، لأنه يمكن للمنطقة العيش مع هذه الأحادية واستخدامها كما يمكن استخدام القوة الكبيرة الموجودة حالياً تحت تصرف الولايات المتحدة من قبل الجميع كوجهة لتبرير الأهداف الأمريكية. أن أصداء قرار مجلس الأمن بالإجماع الذي يخول نزع سلاح العراق - الذي وقعه النظام السوري-، سيعطي الحكام العرب المساحة التي يحتاجون إليها للادعاء بأنهم ببساطة انصاعوا للمحتوم، وأن صدام قد نال الحرب التي كان ينادي لها.

في النهاية، فإن المعركة من أجل نظام تجديدي علماني في العالم العربي هو مسعى من أجل العرب أنفسهم. ولكن قضايا القوى، وإرادة وهيمنة قوة عظمى يمكن أن تساعد في تعزيز المقاييس لصالح الحداثة والتغيير.

"الأمريكيون قادمون"، هذا ما أعلنه الإسلاميون بعد الهزيمة السريعة لطالبان، لقد هرعوا للتخفي لأن "مؤسساتهم الخيرية"، وتحريضهم، وشبكاتهم من التوظيف والتجنيد كانت قد بدأت تخضع لتدقيق جديد، لقد عاد

ظهور الإسلاميين الواضح بعد أشهر عدة على أمل أن تكون الولايات المتحدة قد فقدت الإحساس بالانتهاك الشرعي الذي ألم بها بعد أحداث 11 سبتمبر، وأن المد الأمريكي في المنطقة ربما يكون قد فقد قوته.

هؤلاء الإسلاميون سياسيون للغاية ويقظون مع الناس، يسبرون غور عزيمة أعدائهم، كان خطاب "محور الشر" الذي ألقاه الرئيس جورج بوش في كانون الثاني (يناير) 2003 سبباً في إثارة الفزع بين الإسلاميين، ثم جاء قسط من الارتياح في الأشهر التي تلت الخطاب، لقد استمدوا شجاعة جديدة من الصراعات البيروقراطية في واشنطن ومن تسليط الاهتمام على صراع سلطة ياسر عرفات مع إسرائيل بعد بضعة أشهر.

حرب على العراق في مثل هذه الحالة ستكون ناجحة لا محالة، ستشجع أولئك الذين يرغبون في إنقاذ العالم العربي من تسارع الأحداث والفساد السياسي. كما كانت الولايات المتحدة في الوقت نفسه بمثابة المدافع السياسي ومروج للثورة الاجتماعية في العالم العربي والإسلامي.

وذلك لم يكن شيئاً خالياً من العنصر الثوري على أي حال، لكن من طرف واحد هو العالم العربي إلى الجهة الأخرى، التي كانت قوتها إلى جانب رد الفعل السياسي والوضع الراهن الراكد، فكان يجب أن تأتي الحرب الجديدة مع الوعد بأن الولايات المتحدة هي الآن عامل الإصلاح، و سيكون الداعمون المتميزون للولايات المتحدة هم الكويت وقطر وذلك لسببين، أولهما الصدمة والانتهاك الذي تعرضت له الدولتين خلال 1990- 1991م على يد العراق، والثاني أن العراق اتخذ منهجًا حازمًا وجديدًا في الدبلوماسية، فضلاً عن استعداده للانضمام علنًا إلى السلطة الأمريكية، على كل حال فإن النظام الحاكم في العالم العربي، على المستوى الرئيسي، سوف يغض الطرف أملاً في نيل الحماية الأمريكية، فبدلاً من عاصفة الصحراء، سيطلب الحكام العرب إلى العاصفة الكاملة: حرب سريعة، وعدد قليل من الضحايا، والقليل من فضح أنفسهم على قدر الحاجة، تلك كانت فرصة للتخلص من صدام بشكل خفي.

نادراً ما يمنح العالم السياسي شيئاً من حسن الحظ، لكن هذه هي معضلة الحكام الذين لا يحظون بشعبية ضخمة والذين لم يحملوا أبداً شعوبهم على الثقة بهم، الذين عاشوا مع الرعاية الأمريكية في حين كانوا يلوحون في أكثر الأسراب المعادية للأميركيين خبثاً، يعرف هؤلاء الحكام أن الحرب ضد العراق ستكون الحرب الأولى في وسطهم التي تشنها الولايات المتحدة في زمن القنوات الفضائية، في وقت يكون فيه الجميع متابعين، ودوماً خيارات الاختباء متاحة. ومن الجدير بالذكر هنا أن حكام السنة العرب لو وقفوا موقف رجال لسحبوا الشرعية من الموقف الأمريكي، ولكن مبارك زار فرنسا وألمانيا لتأكيد موافقته على الموقف الأمريكي، وأصبح الأمريكان يقولون أن العرب معنا يريدون الخلاص من صدام حسين لأنه خطر عليهم لأن لديه أسلحة دمار شامل ويتعامل مع أسامة بن لادن (أبو الدهب، 2017).

هذه سوف تكون حملة جديدة ضد العراق ستؤدي إلى صدور حكم موزع بشدة في المنطقة حول الخطر العراقي، عن أولئك الذين إذا خرجوا فقط من مشاعر عدم الملائمة التاريخية للمهارات التقنية للعرب، سوف يشكون في أن أسلحة الدمار الشامل تحت تصرف الحاكم في بغداد وجهازه العسكري، وسوف يرى آخرون أسلحة العراق كدليل على أن العرب قد بلغوا السن الكافي في العالم المعاصر، وأن القوى الخارجة عن مجالها عازمة على إخضاعهم، وتجريدهم من نفس الأسلحة التي تمثل الحداثة والمعرفة العلمية والعسكرية في عالم هو بزي من التسلسل الهرمي وعدم المساواة، أدت هذه المعضلة الاستراتيجية العراقية إلى المزيد من التعقيدات، كان صدام يدرك أن الكشف عن الضعف العراقي قد يدعو البعض، وخاصة إيران، إلى الاعتداء على العراق، لذا أراد أن يجعل العالم يعتقد أنه كان يمتلك أسلحة دمار شامل. لكنه في النهاية أدرك حاجته إلى إقناع الدول الغربية أن نظامه لم يعد يمتلك تلك الأسلحة كي يجنب نفسه مواجهة التحالف. بمجرد بدء قوات التحالف الاستعداد للحرب في أواخر 2002، قرر صدام التعاون مع الأمم المتحدة كي يبرهن على أن بلده خال من أسلحة الدمار الشامل. (Pipes، 2006)

وبالنظر إلى العنف والإشفاق على الذات في الحياة العربية، وتراجعها عن الثقافة الحديثة، واعتناقها لنظريات المؤامرة، فهناك أسباب مبررة للاعتقاد بأنه لا توجد تقاليد ليبرالية أو علمانية محلية لاحتضان الولايات المتحدة واستخدام نصيبها لبناء بديل للحكم الاستبدادي في العراق، قلة من العرب يعتقدون أن هذا سيكون حملة ويلسونية لنشر حكم الحرية في العالم العربي، يجب أن يغفر لهم شكوكهم، لأن القوة الأمريكية، إما بالتصميم أو بالتقصير، قد بنيت على العلاقات مع الحكام العسكريين والملوك دون تفويض من الشعب، ولم تثق أمريكا يوماً بالطبقات الوسطى والعمال على هذه الأراضي، وبدلاً من ذلك فقد أبقت على علاقات ملائمة مع الأنظمة الديكتاتورية في المقام الأول، والمتسامحة مع الأوساط الثقافية والسياسية في العالم العرب، لذلك سوف يتعين على أي دور أمريكي جديد في المنطقة أن يكسر هذا التاريخ، ذلك لأن هذه الحرب ستشكل متغيراً ذي أثر كبير في تغيير أو تعديل المواقع والمفاهيم بالنسبة لدول المنطقة (العبيدي، 2007).

ثانياً: وحيدٌ على القمة!

كانت العزلة الأمريكية أكثر حدة مما كانت عليه إبان حرب الخليج 1990- 1991م، في تلك الفترة كان هنالك غطاء محلي لما كان في حقيقة الأمر حملة إمبريالية ضد الدولة العراقية التي هددت بقطع توزان القوى في الخليج، وحتى رجال القضاء المسلمين في المملكة السعودية ومصر الذين أصدروا فتاوى أجازت بدورها إرساليات القوى الأجنبية.

القوى الثلاث التي عقبت حرب الخليج الثانية . مصر وسوريا والسعودية . كانت متجمعة ضد صدام حسين، وكانت السعودية خطراً مباشراً، حين منحت مصر وسوريا مكافآت اقتصادية كبيرة لتغطية دول الخليج، مما حرم الحاكم العراقي من فرصة تصوير الصراع على أنه قائم بذاته بين من يملكون والمعوزين في العالم العربي، من الجدير بالذكر أن السعودية قد شرعت حدودها لخمسة آلاف بحار من المارينز على متن سفن في منطقة الخليج وعدداً حاملات الطائرات في شرق البحر المتوسط (بجك، 2006) وكان صدام متبلداً بشكل خاص: فقد خرق قانون النظام العربي الحاكم الذي كان قد وضعه كمقاتل موثوق به ضد الدولة الثورية الإيرانية، قد كانت القوانين والتشريعات في العراق حينئذ محصورة في إصدارها بمجلس قيادة الثورة الذي يتلخص في رئيسه صدام حسين، وكان من المعتاد أن يفاجأ المواطنون بخبر في التلفاز (أصدر مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ كذا هذا القانون)، وفي الحقيقة فإن مجلس قيادة الثورة لم ينعقد، ولكن القانون الذي نص عليه الخبر كان أمرا مباشرا من صدام (فايد، 2016).

ويرى الباحث أن عملية عاصفة الصحراء بمثابة حملة إنجلو- أمريكية للهيمنة كانت بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من العرب، وفي هذه الأثناء كان وحشٌ مفترساً، وريثٌ لعصر باكس بريتانيكا في الخليج الفارسي، قد ظهر في المنطقة وقامت قوة أجنبية كبيرة، بفحص سعيه للهيمنة. صدام حسين، الذي نهب دولةً، لكن كان معه هناك تعريف شعبي غريب، ورأته الحشود كحامل لمسعى عربي نبيل، كان الساذجون يرون فيه روبن هود، أو انتقام صلاح الدين من الفرنجة والمتعاونين المحليين معهم، رأوا أنه يمحو الحدود الاستعمارية التي فرضت بعد الحرب العالمية الأولى، التي يكون من الهرطقة أن يتم اعتبارها، لكن الحاكم العراقي كان سيحصل انتخابات نزيهة بين العرب في 1990-91، كانت السلالات التي يحاربها غير مرغوبة في العالم العربي، من عمان إلى نابلس إلى الدار البيضاء، مما دفع الجماهير على إعطاء موافقتها على ليلة الإرهاب التي أطلقها على المنطقة، اعتبروه رجلا تصحيحيًا على خلاف حقيقته، في عالم بائس، يلعب اللصوص فيه على حبل آمال الحشود المتواضعة سريعة الامتعاض.

هذه المرة لم توجد آمال عربية كبيرة معلقة على الحاكم العراقي، هذا هو الجانب الآخر من دفتر الحسابات، لأن الحشد المتقلب يكسر هذه الأنواع من الارتباطات مع اللصوص والمنافقين بتردد كبير، صدام خسر المناقصة، قد عالج عالماً غارقاً في الهزائم بكارثة أخرى، كان الحشد الذي سلم لأسامة بن لادن هو الحشد نفسه الذي كان يثق في وقت ما بآمله في العالم الذي سوف يتم صناعته من قبل الحاكم العراقي، أن الصراع في هذا الوقت ضد صدام هو مسألة غير ملائمة، فقد يثور الحشد نفسه ضد الأميركيين، لكن روابطه مع الحاكم العراقي تآكلت.

هذا أمرٌ خاص ولكن محوري، العالم العربي هذه المرة هو أكثر هدوءاً في الفترة 1990-1991، ويبدو أن كل التيارات التحريفية السياسية، الحسد العربي من قبل الدول الفقيرة تجاه الدول النفطية، والحس المرّ بأن التاريخ قد تناول العرب بفظاعة، تتلاقى في الأردن، لقد كان رائجاً في هذا البلد أكثر من أي دولة أخرى في العالم العربي، أن الديكتاتور العراقي كان يمر في مرحلة انتقالياً وسيصبح مخلصاً، وأن لديه (الرجولة)، المال الوفير، ولا زال متمسكاً بالوعد أن يتم إسقاط السياسات النفطية.

وكانت الراديكالية في تلك الفترة هي السبب الذي أجبر الملك حسين على أن يبقى في مقدمة ذلك الحشد، وينفصل عن القوى الإيرانية-الخليجية والولايات المتحدة لأجل البقاء إلى جانب العراق.

مجموعة من علماء الدين، ومؤتمر "علماء الشريعة" ("جماعة الإخوان المسلمين") أصدر فتوى تحظر أي مساعدة للأمريكيين، مثل "فتح المطارات والموانئ لهم، أو تزويد طائراتهم ومركباتهم بالوقود، وتزويدهم بمعلومات استخباراتية عن حربهم" واعتبرت من يفعل ذلك شريكاً في الحرب الأمريكية ضد الإسلام كما وصفوها، وأضافت الفتوى، "أن من يبيع المعتدي الأمريكي قطعة من الخبز أو أن يشربه شرابًا من الماء، حرامٌ أيضاً، لكن هذه المرة، رسم النظام الملكي الأردني خطاً، وقد وضع الأردنيون الحكيمون الكلام عليه، أن حربًا قصيرة بعدها يعاد بناء العراق، ستكون نقطة في صالح نطاقهم الأفقر والأصغر، حيث اتفقت الولايات المتحدة والأردن على الأهداف الجوهرية: عراق مستقر وحر وموحد وفي سلام مع جيرانه وخال من الجماعات الإسلامية الإرهابية المتطرفة ولديه اقتصاد مفتوح وسيادة القانون وحماية. كما أن التعاون الأميركي الأردني بشأن العراق يمكن أن يتواصل في المسار نفسه حتى لو ساءت الأوضاع في العراق، شريطة أن تتم إدارته بطريقة مناسبة (Lasensky, 2006).

بالنسبة للقوة الأمريكية، هناك طريقتان في العالم العربي، أحدهما هو ضبط النفس، والتشاؤم حول إمكانية تغيير هذا العالم الجامد، مع التحفظ على استخدامات القوة الأمريكية، في هذه الرؤية للأمور، ستقوم الولايات المتحدة إما بتنحية الدكتاتور العراقي أو شن حرب ذات أهداف سياسية محدودة للعراق وللمنطقة ككل، الخيار الآخر، والأكثر طموحاً، هو تصور دور أميركي أكثر عمقا في الحياة السياسية العربية: قيادة مشروع إصلاحي يسعى إلى تحديث المشهد العربي وتحويله، ويكون العراق نقطة الانطلاق، وخلف العراق يكمن تقليد سياسي واقتصادي عربي وثقافة كانت معاناتها وفشلها في ظهور قاسٍ.

الخيار الأول من شأنه العودة بالضرر على عاصفة الصحراء، بعد حملة مشبعة بغاية أخلاقية عالية أصبح معتمٌ عليها، لم يكن هناك حافز للتعمق في العراق أو في السياسة العربية، وقد استعاد العراق توازن القوى، ولم يكن النظام الداخلي للدول العربية يخص جورج بوش في الواقع ويبدو أن بوش لديه بعض من النوايا الحميدة للملكيات العربية، كان موقفه من دول الخليج يشبه ما أخذه البريطانيون إلى عوالم بعيدة عن امبراطوريتهم قبل أن يلحق الإصلاح بالسلم.

تم استخدام السلطة التي جنتها الولايات المتحدة بعد عاصفة الصحراء، لتطبيع العلاقات بين العرب والإسرائيليين في اتفاقية مدريد 1991م، عندما ربط بوش بين حرب الخليج الثانية والصراع العربي الإسرائيلي، وأيضاً قد جعلها حجر الزاوية في استراتيجية الولايات المتحدة بعد أن سقطت الأسلحة.

بالنسبة للعراق نفسه، لم يكن هناك أي ضمانات، وقد دعا بوش العراقيين إلى "أن يتحملوا مسئولياتهم بأيديهم"، وقد تم الرد على دعوته في تلال كردستان وفي الجزء الجنوبي من البلاد، حيث اندلع التمرد في البصرة، ثم انتشر في المدن المقدسة الشيعية، كالنجف وكربلاء، ثم تزامن حصار النظام مع إفراغ السجون، وتحول المساجين إلى جنود يتجولون في الجبهة، بمساعدة طائرات الهليكوبتر التابعة للنظام، بهذا الشكل سُحقت الثورات بوحشية لا توصف، ويجب الإشارة أن شبه التحالف الأمريكي-الكردي قد بلغ ذروته في أبريل/ نيسان 2003، حين تقدمت القوات الأمريكية صوب وسط بغداد، وفي ذلك اليوم تم تحطيم تمثال صدام حسين في وسط بغداد، وفي الأيام التالية سيطر المقاتلون الأكراد والقوات الأمريكية على مدينتي كركوك والموصل الشماليتين، كما وقعت أعمال نهب كبيرة في بغداد وغيرها من المدن العراقية. أبريل/ نيسان 2003: القوات الأمريكية تتقدم صوب وسط بغداد، واليوم نفسه يشهد تحطيم تمثال صدام حسين في وسط بغداد. وفي الأيام التالية يسيطر المقاتلون الأكراد والقوات الأمريكية على مدينتي كركوك والموصل الشماليتين، ووقوع أعمال نهب كبيرة في بغداد وغيرها من المدن العراقية، كل ما قام به الأكراد آنذاك كان تحت بند مطالبتهم بالحكم الذاتي (BBC، 2014).

لكن في السنوات الفارقة، تحولت الصورة في العالم العربي، وارتفعت المخاطر بالنسبة للولايات المتحدة، لقد علّق الدكتاتور العراقي على نعيه المتواصل، وسخر منه، وقد وقعت الولايات المتحدة في صراع بين الأنظمة من متمردين وإسلاميين، لم يتمكن هؤلاء المتمردون من الفوز في الجزائر أو مصر أو تونس أو سوريا أو شبه الجزيرة العربية، لذا اختصروا الطريق واستهدفوا الولايات المتحدة، وكانوا صريحين بشكل بربري حول دوافعهم، لم يضربوا أمريكا لأنها كانت راعية لإسرائيل، بدلاً من ذلك، قاموا بالتمييز بين "العدو القريب" (حكامهم) و "العدو البعيد"، الولايات المتحدة.

هذه الأنظمة الراسخة لا يمكن قتلها في المهد حيث أن قوتهم، وكذلك قبول شعبهم بأن خطايا حكامهم سوف تتضاءل من جراء الرعب الذي كان يطلقه الإسلاميون، كان ذلك في صالح الحكام.

لقد ظهر هدف أمريكا من هذه الثقافة السياسية المهولة للأراضي العربية، إذا لم يستطع أيمن الظواهري، زعيم الجهاد الإسلامي المصري، الثأر من النظام العسكري لحسني مبارك بسبب التعذيب الذي تعرض له على أيدي الأجهزة الأمنية في بلاده، فلماذا لا يستهدف رعاة مبارك من الولايات المتحدة؟

ودفع دافع مماثل أعضاء القاعدة السعوديين، هؤلاء الرجال لم يستطيعوا طرد آل سعود، ثروة السلالة هي أولويتها السياسية، والمؤسسة الدينية المحافظة تعطي الحكام القرارات الحاسمة في صراعهم مع الإسلاميين،

كانت الحرب ضد أمريكا هي ثاني أفضل شيء يحدث في المنطقة، كانت القوة العظمى هدفاً سهلاً: فقد كانت أكثر انفتاحاً وثقةً، وحرياتها أسهل من مجموعة من الجهاديين. كان الجهاديون وزعيمهم، بن لادن، يستهدفون الصورة الذاتية التي ترعاها الأسرة السعودية بعناية، أطفال شبه الجزيرة العربية الذين صعدوا إلى هذه الطائرات في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر وعدد لا يحصى من الشبان المحتجزين في القاعدة العسكرية في خليج غوانتانامو بأحكام مؤبدة، حصل بن لادن على الأزمة في العلاقات السعودية الأمريكية التي كان يسعى إليها وتم وضع هؤلاء الشبان السعوديين الـ15 على تلك الطائرات لتحدي المفاهيم القديمة حول استقرار النظام الملكي.

لقد كانت هذه الطبقة من الوئام السعودي الأمريكي مقدرٌ لها التصدع، السكان السعوديون قد تغيروا. كانوا صغاراً، أكثر فقراً، وأكثر استياءً، لقد تحركت موجات أثيرها مع معاداة الأمركة المريرة، كما تحدت سلالة شابة من الدعاة المتطرفين المذهب الوهابي المتمثل في إطاعة الحكام. ومع هبوب رياح معاداة الأمركة وحركة معاداة الأديان، تحرك الحكام جانباً، كانت العائلة المالكة حذرة، لقد كانوا ضمن قطيع أمريكا ولكن سمحوا لحركات محاربة الأمريكان أن تؤدي دورها.

ثالثاً: ذريعة الحرب.

يجب أن ترتكز قضية الحرب جزئياً على نوع الرؤية التي لدى الولايات المتحدة للعراق، يجب أن نضع مخاوف "بناء الأمة" جانباً، فالحكم الأجنبي المباشر في حسابات الأمم، بات شيئاً من الماضي، لكن يجب أن يكون هناك وجود أمريكي مستديم إذا كان النظام الجديد هو التمسك والتأصل، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية دائمة البحث عن أي معلومات ولو كاذبة بشرط أن تقضي إلى إدانة وتوريط صدام و بن لادن وتنظيم، وحسم الأمر بإعلان الغزو على العراق بغض النظر عما إذا كان لصدام صلة بتنظيم القاعدة أم لا وسواء وافقت الأمم المتحدة على قرار الغزو أم لا ، وسواء عارضتها الدول الأوسطية أو لا (الصحاري، 2002).

العراق مجتمع رأس مالي اجتماعي كبير، كما تشير جميع الدراسات إلى أن الفعاليات الاقتصادية الرأسمالية الوطنية العراقية لم تشهد تخصصاً واضحاً في الأعمال فقد مارست هذه الطبقة البرجوازية الناشئة نشاطات مختلطة في مجالات التجارة والخدمات والفعاليات الصناعية الصغيرة في أن واحد (حسن، 1965)، ويعتبر العراق ثاني أكبر احتياطي من النفط في المنطقة، كما أن لديها تقاليد محو الأمية، والتعلم، والكفاءة التقنية. ويؤكد الباحث على الدور الكبير لمهارات اليهود المشتتين في العراق وما لديهم من وسائل رقي.

كانت هناك مهارات وأمل في أن يكون النظام السياسي على حق، وأن وفرة النفط والمياه والحرية النسبية من التقاليد الدينية المتعجرفة ستمهد الطريق نحو الحداثة والتنمية.

مقارنة بعصر باكس أميريكانا، قد يكون العراق جديراً بالمخاطرة، لقد كانت أمريكا على الأرض في المملكة العربية السعودية منذ ما يقرب من ستة عقود، في مصر لمدة ثلاثة، وفي كل العوالم، هناك غضب وإغراءات تجاه أمريكا، وعليه فإن ما بني في الجزيرة العربية في خطر حقيقي، أن المعونة والمساعدات التي منحت لمصر لم تولد شيئًا سوى الجحود والشك العميق بين المصريين اليائسين من الطبقة المتوسطة، والذي ترغب الولايات المتحدة في تحقيقه من حيث التبعية والاعتماد، كما أنه كان هنالك معاداة أمريكية لا يسبر غورها في مصر- حتى بين هؤلاء العمال الذين أبلوا بلاءً جيداً خلال العلاقة الأمريكية.

من الجلي أن لا خيار ليبرالي لمصر، ولا خلاص اقتصادي، أن هذا البلد الذي يتمتع بالهدوء الخارجي والراديكالية الداخلية المتأججة يقع في بحر الإحباط العميق. انحسر التاريخ المصري، وبات الحاكم العسكري هو الأعلى، لكنه لا يقدم أي شيء من أجل بلده، ومع انحسار الحياة السياسية للأرض، ترسخت معاداة الأمريكان، وحلت محل التعايش، وباتت طريقة لإذابة غضب شعب حالم لم يفقد فكرته عن نفسه ومكانته بين الأمم، وربما يكون العراق على النقيض من ذلك، الذي يعتبر حلم الحياة العربية الخالية من سم العداء لأمريكا قاعدة له.

ويرى الباحث أيضاً، أن المجتمع المصري لم يكن محاصراً بأي نوع من المحظورات الدينية التي تطارد الوجود الأمريكي في المملكة السعودية التي قد يكون لديها استعداد أكبر للديمقراطية من مصر، لكونها ثرية وخالية من ثقل الضغوط الديموغرافية في مصر والتهديد المستمر للحركة الإسلامية، ورغم ذلك يجب ألا يكون العراق مثقلاً بالتوقعات الكبيرة، هذا هو العالم العربي بعد كل شيء، والأميركيون لا يعرفون ذلك بمثل هذه العلاقة الحميمية.

قد تخيب العراق آمال محرريها الأمريكيين، وتكون الحسرة في العراق، والانتقام يمكن أن يزعج الأمريكيين في هذا المجال الأخير أكثر من تأثير العالم الإسلامي، لكن أمريكا يمكن أن تكون أكثر جرأة في العراق مما كانت عليه بعد عاصفة الصحراء، حيث ينبغي وضع غول الدولة الشيعية التي تظهر في العراق على أنها الأخطر فان للنظام الديني الإيراني، بينما الخوف من شل السلطة الأمريكية في عام 1991، قد تلاشى بوضوح إبان الثورة الإيرانية، ورجال الدين هناك ليسوا في وضع يسمح لهم بتصدير "سعادتهم الثورية" ثم يجب أن ينظر إلى شيعة العراق على حقيقتهم: كعرب وعراقيين.

كان الشيعة ظاهرة لقرون قبل عبورها إلى إيران، جلبها إلى تلك الأرض الحكام الصفويين كدين الدولة في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، وحتى قبل ذلك بوقت طويل كان النزاع الديني السياسي العربي.

هذا التاريخ المُخترع أوجد حياة خاصة به تحت حكم صدام حسين، قبل أن يرهب حكام "تكريت" المؤسسة الدينية الشيعية، ويحطموا استقلالها الذاتي، كان المقياس السليم للتواطؤ هو المعيار السائد بين المعاهد الدينية الشيعية في العراق وإيران، قليل من الشيعة العراقيين كانوا يتوقون للتنازل عن عالمهم الخاص لحكام إيران، باعتبارهم أغلبية سكان العراق، لديهم مصلحة ثابتة في استقلاله وقيام الدولة.

على مدى العقود الثلاثة الماضية، عانوا من وحشية النظام حتى خاضوا حربه ضد إيران في 1980-1988. قلة قليلة من بينهم تحلم بدولة شيعية، أما غالبيتهم فمن العلمانيين الذين يدركون أنه يجب مشاركة الدولة حتى وإن كانت تمارس الوحشية بين مجتمعاتها الأساسية كطريق للخروج من الخوف والرعب.

كان هنالك حركة الشيعة الدينية، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، ومقرها في إيران، بقيادة آية الله محمد باقر الحكيم، أن اختيار إيران كملاذ آمن من قبل عائلة الحكيم كانت تمليها وحشية النظام العراقي وعدم وجود ملاذ عربي حيث يمكن للمعارضة الشيعية البقاء والعمل فيه، منحت إيران رجال الدين والعلمانيين الموارد والحماية من حربهم ضد النظام، أن ما يمكن أن يأتي به هؤلاء الرجال إلى نظام جديد هو أمر لا يمكن التنبؤ به بأي شكل، ولكن في الوقت ذاته من الصعب رؤيتهم يبنون الجسور الضرورية للأكراد والبقايا السنية المستعدة والقادرة على الانفصال عن تراث تكريتي.

والنتيجة الأكثر ترجيحاً هي صعود السلطة إلى فصيل من فصائل الشيعة: ممن هم أكثر في الوطن العربي مما هم عليه في العالم العلماني، كما يمنح رجال الدين دورًا سياسيًا وثقافيًا في حين يخضعهم هذا الدور للسلطات العلمانية، كما هو الحال في لبنان.

رابعاً: أُجر جيد، مقابل العروبة؟

قد يكون النظام الجديد في العراق على استعداد لتوديع العروبة السامة، وفي عراق جديد، قد تهدأ العاطفة في النداء الفلسطيني، بما أن الفلسطينيون لطالما كانوا من المخلصين لصدام حسين، لقد كانت القاعدة بالنسبة للعراق، هي الأرض العربية الحدودية البعيدة عن البحر الأبيض المتوسط ، لإذكاء "معاداة الصهيونية" مع العلم أن الآخرين، "الأردنيين والفلسطينيين والمصريين والسوريين واللبنانيين" هم المستنزفون. قد يمتلك النظام السياسي العراقي الجديد في حد ذاته القدرة على الاعتراف بأن فلسطين والفلسطينيين ليست مصدر قلق عراقي، وقد تستنتج النخبة الحاكمة الجديدة التي تجمع شتات العراق أن تقديم مكافأة إلى عائلات "الشهداء" منفذي العمليات الفدائية الفلسطينيين أمر ممكن، لبلد لا حيلة له، لكن الفلسطينيون قادرون على المضي قدماً بدون هذه العطايا.

إن أي ترتيب سياسي عراقي جديد من شأنه أيضاً أن يمكّن الشيعة والأكراد، ولا يدين أيٌّ من السكان بمتطلبات العروبة، فالأكراد العراقيون مدينون للعالم العربي ولو بالقليل، كما أن وحدة المعارضة العراقية في السياسة العامة للعالم العربي كانت عميقة ومتقدة، فلم يكن لدى معارضي صدام أي رعاية مصرية أو سعودية، ولم يحتضنهم القوميون العرب ولا "الرأي العام". لقد عملوا بمفردهم من لندن وإيران، وأخيراً برعاية أمريكية، إنهم أحرار في تشكيل عالم هش نسبياً مرتبط بالمطالبات العربية.

لاحظ أحد المفكرين الكويتيين القديرين، محمد الرميحي، مؤخراً أن الحديث عن العراق كنموذج للعرب الآخرين أمرٌ مبالغ فيه، وأن العراق لم يتمتع أبداً بأفضلية في الحياة العربية الحديثة، إما تحت الحكم الملكي أو في ظل الأنظمة الراديكالية التي سيطرت منذ ثورة 1958، قد يكون هناك حقيقة في ما يقول، لأن العراق هو شخصية

مميزة ويفتقر إلى إمكانية الوصول الثقافي إلى العرب الآخرين، مثل تلك الموجودة في القاهرة، دمشق، أو بيروت. ولكن هنا تكمن احتمالات نجاح العراق: الحرية من أساطير العروبة القاتلة، ومن إغراء الأدوار السياسية التي دمرت الأنظمة العربية التي خضعت لها، كالفكر في القاهرة تحت وطأة العروبة التي قامت بتدمير الآمال البراقة في عصر الناصرية. لا يجب على أي دولة أن تتمنى لنفسها هذا النوع من العبودية.

إن القومية العربية التي عصفت بالعراق وارتبطت بالحياة السياسية فيه كانت بمثابة تبسيط عظيم لذلك البلد المتقلب، كما أن التاريخ كان كسوط في أيدي أقلية عازمة على السيطرة على النظام السياسي وتجريد المجتمعات الأخرى من ادعاءاتهم الشرعية، فالعراق بلدٌ من جبال الأكراد، عرب الأهوار، والسنة، والشيعة، والتركمان، والآشوريين، واليهود، والكلدانيين. لكن العرب السنيين فقط وصلوا إلى السلطة.

شكل التنوع العرقي والديني والثقافي في العراق فرصة، لسلطات الاحتلال الامريكي لفرض حالة من التنافر بين مكونات المجتمع العراقي من خلال دفع تلك المكونات لعدم تقبل الرأي الآخر على أسس المواطنة والتعايش السلمي وقبول الآخر، وحل الاختلافات بالعنف وليس بالحوار والتفاهم، وذلك بغية زعزعة السلم الاهلي وتمزيق النسيج الاجتماعي العراقي، واشاعة بيئة من العنف و الصراع والاحتراب بين ابناء الوطن الواحد، مما هدد التعايش والسلم الاهليين وبالتالي وحدة النسيج الاجتماعي العراقي التي تشكل شرطا" موضوعيا" من شروط بناء الدولة المدنية ومؤسساتها الدستورية والديمقراطية (علو، 2013).

لقد عمل الحكم البريطاني من خلال السُنة، لأن البريطانيين افترضوا بحق أن المجتمع الحاكم الذي ضم 20 في المائة من السكان سيخضع بسهولة إلى الوصاية الأجنبية، في مفارقة تاريخية صعبة، ظهر العرب السُنة بأفضل البدائل: كانوا في أن واحد وكلاء السلطة الاستعمارية وحاملي إيديولوجية حربية صارمة من القومية العربية، كما بقيت العراق نفسها خارج الجسد السياسي، وهذا أمرٌ أجنبي، وأعطى النفط والإرهاب حرية للدولة من المجتمع العربي ووسائل تدمير كل المنافسين المحتملين، وقد نما النظام أكثر من ذلك، وأكثر سنية، وأكثر عروبةً يوماً بعد يوم، بعد ذلك تم تدمير الآشوريين في حملة عسكرية في عام 1933، ثم تم طرد اليهود وطردهم، بقي هناك الشيعة والأكراد والتركمان في حالة تنافسية.

ونمت العراق أيضاً في السلطة، ما أدى إلى هيمنة أهل تكريت الذين هم أبناء مدينة صدام حسين، وكنتيجة لذلك فصل النظام عن المجتمع الأكبر حوله، تكريت التي اعتاد أهلها على العيش من صنع طوافات من جلد الماعز، شقّت طريقها إلى الأكاديميات العسكرية والأجهزة الأمنية، وهناك وجدوا مسعى جديد تمامًا: إرهاب الدولة، فكان لابد من منحهم حكمًا أيديولوجيًا، كما أثبتت القومية العربية أنها أداة مثالية للاستثناء، وهو غطاء حديث للقبلية.

طالما كان الهلال الخصيب أرضًا للمجتمعات المتنافسة والأقليات المدمجة، أما القومية العربية، عقيدة حكام العراق، بدورها هربت من كل هذا الغموض إلى عقيدة عدوانية لا تنضب، لقد دمرت الراديكالية في ذلك الوقت تاريخ العالم العربي وأعطت سياسة الهلال الخصيب أسلوباً عنيفًا، فصدام حسين لم ينزل من السماء، بل خرج من خطايا العالم من الإغفال والسمسرة، ولقد كانت الحماقة القاتلة التي ذهب بها لإخضاع الأكراد والشيعة كانت بمثابة إعادة لعمق الحياة العربية، أما هناك على الجبهة الشرقية من العالم العربي، والعراق بقائدها، علقوا آمالهم على الوعد الزائف لبيسمارك العربي الذي سيتحقق في الوقت المناسب، ثم يتجه لمواجهة اسرائيل.

خامساً: الانفتاح على الديموقراطية.

إن العالم العربي الذي يعمل على التخلص من الإغراءات المدمرة قد يتاح له فرصة لإعادة التفكير في دور السلطة السياسية وطبيعة الدولة ذاتها، وغالباً ما بدا في السنوات الأخيرة أن التقاليد السياسية العربية محصنة

ضد التحركات الديمقراطية، لأن الديموقراطية قد تؤدي إسقاط نظام فظيع من الإرهاب، إذا كان الأمر كذلك، فإن مهمة إصلاح أو إزالة السموم من العراق ستكون مهمة كبرى، كإعادة تأهيل اليابان بين استسلامها في عام 1945 واستعادة سيادتها في 1952 في سابقة تاريخية، والحقيقة أن المثال الياباني قد ظهر بالفعل في المناقشات الأمريكية والعربية كنافذة على نوع العمل الذي ينتظر الأمريكيين والعراقيين بمجرد إسقاط الديكتاتورية، لا يوجد أي تناظر مثالي بين العراق واليابان، كما أن الولايات المتحدة هي مجتمع لا يختلف جذريًا عما كان عليه في عام 1945 -فهو أكثر تنوعًا، يفتقر إلى الإحساس بالمهمة الصالحة التي دفعته خلال سنوات الحرب أن يقوم بما قام به في اليابان.

مع ذلك، فإن السابقة اليابانية مهمة، ففي غضون عقد من الزمان، أفسحت اليابان الطريق أمام مجتمع أكثر توازناً وعصريًا، إذن، البلد الذي تسممه النزعة العسكرية ظهر برؤية فارقة للعالم. لقد كانت عدالة المنتصرين هي التي دفعت عجلة العمل الضخم الجديد ودعمت التجريد من الدمقرطة، الآن يتبادر إلى الذهن، تركيا والأردن وحتى إيران تعتبر أرض أكثر رحمة من السجن الكبير الذي أصبح عليه العراق، أن الوحشية التي عانها العراقيون في عهد صدام هي النعمة التي يدخرها العراق في حال أتى الخلاص، وأيضاً هي مقياس للواقعية آنذاك.

الآن، يجب تنحية الاستكانة للرهاب العربي الأوسع حول الشيعة أو الأكراد القادمين إلى السلطة الجديدة في العراق، حيث لا يمكن لسلطة ليبرالية أن تدعم الأنظمة العرقية للأقليات، لا يمكن جعل حكم الأقلية السنية، التي تقل الآن عن 20 في المائة من سكان العراق، هدفاً أمريكياً، إنه مع هذا النوع من الرهاب والتحيزات التي يجب على العالم العربي أن يكسرها، يجب أن تفكر الثقافة التي تظهر بشكل مباشر في مشاكلها الخاصة بصوت عالٍ حول الغضب الذي يتم استدعاؤه نيابة عن الفلسطينيين في حين أن ألم الأكراد، أو الأمازيغ في شمال إفريقيا، أو المسيحيين في جنوب السودان، يتم التغاضي عنه في صمت.

إن هذا الإحساس المبرر بحالة أن العربي دوماً ضحية، يتغاضى عن ما يفعله الحكام العرب للآخرين بينما ينتحبون على تلك الحالة الخاصة وينبع هذا من تقليد سياسي للشفقة على الذات. يجب أن يكون الدفع لعالم عربي يعترف بحدوث تراجع اقتصادي وسياسي خاص به ويبدأ في الخروج من تلك الطرق الطائفية المقعدة.

فالأكراد مثلاً، هنالك مقترحات لإقامة نظام حكم فيدرالي لامركزي لهم، من شأنه أن يبقي البلاد سليمة بينما يمنح الأقلية الاستقلال الذاتي الذي وعدت به عندما تم حصرها في حكومة عربية في بغداد في أوائل القرن العشرين.

يبدو أن الفيدرالية لا تبدو في صالح العراقي، ولكن قد تكون خلاص للعراق، ستكون مخرجاً، عن قيادة الولايات المستولية على العالم العربي على دول النفط المركزية بشكل خاص، في تاريخهم الحديث، تم خيانة الأكراد مرارا وتكرارا، وهذا التاريخ الرهيب قد ولدت فيه لهم عادات وأخويات وتحريضات، لكن يجب منح الأكراد الفضل في ما بنوه خلال العقد الأخير في أرض أجدادهم في شمال العراق، وإن كان ذلك تحت حماية القوة الجوية الأنجلو-أمريكية، لقد ازدهرت كردستان، ويبدو أن الصراع المستمر بين أمراء الحرب المهيمنين، مسعود بارزاني وجلال طالباني قد خمد، في محاولة لحياة برلمانية.

هذا الإنجاز ضعيف ويمكن أن يتصدع، ولكن تحت نظر قوتين من القوى اليقظة والمعادية، إيران وتركيا، يبدو أن الأكراد يسيطرون على المنطقة التي يحكمونها، والتي تتكون من 10 بالمائة من أراضي العراق و 15 بالمائة من سكانها. العرب لا يعطون وجهات نظر رحيمة للأكراد، لكن الأكراد يمكن أن يجلبوا النقاش حول عراق جديد في التجربة والتوازن المكتسب خلال الحكم الذاتي.

ليس من المفروض أن الأكراد، أو الشيعة يريدون الجمهوريات الطائفية الخاصة بهم، حيث أن الراحة التي أوجدت في العراق في القرن العشرين لا تزال قائمة، ولكن يجب أن يكون العراق عراقاً، بلد من التعددية الحقيقية،

ثقافة تعاملت مع إيران وتركيا وسوريا وشبه الجزيرة العربية، ووراثة أربعة عقود من الوصاية البريطانية، التي عالجت العالم العربي بفكرة قاسية عن العروبة والانتماء العرقي، وسيتم اختبار هذا الازدواجية والتلاعب بها إذا استطاعت مجتمعات العراق المختلفة الوصول إلى نظام عام مقبول، كما يجب تقاسم "ملكية" عراق جديد ؛ يجب أن تكون مهمته عقدًا اجتماعيًا وسياسيًا جديدًا بين الدولة والمجتمع وبين المجتمعات الرئيسية للأرض.

لكن العراق سيوفر، كما فعل في ظل الوصاية البريطانية، مرآة للقوة الأمريكية كذلك، أن أسبقية أمريكية جديدة في العراق تعمل تحت أعين يقظة، سيكون هناك من يقتنعون بأن عالمهم يعاد استعماره، وسيكون هناك عربيون أكراد على يقين من أن العراق قد تم استثناؤه من "الأيدي العربية"، ومنح للأقليات داخلها الحرية، وجعلها أكثر قرباً لتركيا وإيران، وهما القوتان غير العربيتين القريبتين، كما سيكون هناك أوروبيون يبحثون عن الشقوق في سلوك القوة العظيمة البعيدة، الحكم الذي يهم سوف يتم في الداخل، في الولايات المتحدة نفسها، فيما يتعلق بتكاليف وعوائد العبء الإمبريالي.

ويرى الباحث، أنه كان يمكن للعالم العربي أن يهدم انتصارا أمريكياً، وهذا مشهد سياسي قد يكون مستحيلاً، وقد يرفض رسالة الإصلاح من خلال التحفظ على أخطاء الرسول الأمريكي، هناك مخارج لا نهاية لها متاحة لذلك العالم العربي، فيمكن أن يستدعي الغضب حيال العنف الإسرائيلي الفلسطيني واستخدامه كذريعة للشفقة والغضب، يمكن أن يتصدى لمصلحته الخاصة المحتملة، ويكتب أنهم متواطئين مع هجوم أجنبي، ويمكنه أن ينصب شباكه وينتظر أن تتعب الولايات المتحدة من رحلتها ومن ثم، بحذر شديد، لابد من شن حرب.

ولكن ينبغي الاعتراف بأن قد تم اجتياز نهر الخوف، وصار من المؤكد أن أي تداعيات للحرب قد تتضاءل بسبب العواقب الرهيبة للسير الأمريكي حتى الحافة ثم العودة إلى الوراء، مما يسمح للنخبة العراقية بأن تضع شروط تأجيل أخرى، هذا هو مصير القوى العظمى التي تعطي الأمر للقيام بما هو مخالف للخلفية العالمية، التي تأخذ الحماية بينما تتحسر على اليد الحامية، هذه الحملة الجديدة إلى بلاد ما بين النهرين لن تكون استثناء لهذه القاعدة.

الخاتمة:

في نهاية المطاف، وإن نظرنا إلى الأمر برمته نظرة رأسية محايدة، سنرى أن تسلسل ما جرى في العراق ما بين 1990-2003 م كان تسلسلاً منطقياً، ديكتاتور وقع في حلم السيطرة، وقوى عظمى ستضرب بيد من حديد أي متطفل !

وبعيداً عن التقسيمات لأسباب غزو العراق ما بين أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة، وأسباب واهية وأسباب حقيقية، علينا الإقرار أنه منذ بزوغ التاريخ والصراع الإنساني على الموارد والنفوذ، والأسباب هي مبررات مهما كانت صادقة ومرتبطة بقضية نبيلة من وجهة نظر الغزاة، هنا يجب الإشارة إلى بعض المواقف الدولية التي عارضت غزو العراق 2003م، حتى تلك المواقف كانت قائمة على استحياء ولم تبارح طاولة النقاش.

من زاوية أخرى قد تبدو هامشية، الأقليات، كان على صدام حسين ونظامه الحذر وعدم الوقوع في الفخ الذي وقع فيه من قبل نظام الدولة العثمانية مع الأرمن والإبادة الجماعية في أواخر الحرب العالمية الأولى 1917-1920م، فمثل ما حرضت روسيا الأرمن على المطالبة بحدود مستقلة، حرضت الولايات المتحدة الشيعة والأكراد في العراق على الخروج مطالبين بالاستقلال خلال وقبل العام 2003م، لم يكن صدام حسين في صدد فتح جبهة جديدة على الموقف الحرج الذي كان فيه بعد أحداث الكويت، ولكنه مرة أخرى يترك المصيدة تطبق عليه، وكذلك الهنود الحمر والمذابح التي أوقعتها الولايات المتحدة فيهم، أن كان من الممكن النظر إلى الهنود الحمر كأقليات آنذاك.

كان يمكن لصدام ونظامه الخروج من تلك الأزمة أن انصاعوا للمد الدولي الذي طالبهم بالتراجع عما كانوا فيه، ولكنه التاريخ يجدد نفسه كما حدث مع هتلر في محرقة اليهود 1941- 1945م، طالما كانت الأقليات أداة فعالة في إسقاط أي نظام دكتاتوري لم تسنح له الفرصة في التفكير بالأمر من جانب آخر غير الجانب المحتدم بتدفق الأحداث.

قائمة المراجع:

أولاً: المراجع العربية.

- أبو الدهب، حسين (2017)، دراسة: أمريكا زرعت القنبلة النووية السنية الشيعية حلقة (15)، جريدة الشعب الجديد.
- بجك، باسيل (2006)، العراق وتطبيقات الأمم المتحدة للقانون الدولي ((2005–1990دراسة توثيقية وتحليلية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت.
- تسلسل زمني لأهم الأحداث في العراق منذ تشكله وحتى العام 2014. (2014)، مقالة منشورة في موقع BBC الإلكتروني. http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2014/04/140424_iraq_timeline
- حسن، محمد (1965)،التطور الاقتصادي في العراق الجزء الاول 1864- 1958،المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.
- حيدر، محمود (2005)،الفلسفة السياسية للمحافظين الجدد: إيديولوجية الفوضى الخلاقة، مجلة الدفاع الوطني اللبنانية، العدد 318.
- الخزرجي، حمد جاسم محمد (2013): مستقبل الديموقراطية التوافقية في العراق، مجلة رسالة الحقوق، العدد الثالث.
- رحيمة، عزري (2014): الغزو الأمريكي للعراق سنة 2003، رسالة ماجستير – غير منشورة، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، قسم التاريخ.
- شرابي، هشام (1990)، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية.
- الصحاري، ابراهيم (2002)، العراق حرب من أجل الهيمنة والنفط ، مركز الدراسات الاشتراكية.
- العبيدي، مثنى (2007)، دور إسرائيل في حرب احتلال العراق، الواقع وآفاق المستقبل. مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج (14) ع (9).
- علو، عماد (2013)، المحاصصة الطائفية وأثرها على السلم الأهلي، صحيفة الزمان.
- فايد، رجائي (2016)، ما هو القانون؟ صدام حسين، صحيفة مصر العربية على الانترنت.
- محمد حسنين هيكل (2003)، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، دار الشروق، ط2.

ثانياً: المراجع الأجنبية.

- Lasensky, Scott (2006). Jordan and Iraq: Between Cooperation and Crisis, special Report, Publications of USIP.
- Pipes, Daniel (2006). About Those Iraqi WMD, http://www.danielpipes.org/3545/about-those-iraqi-wmd